مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية || رت م د إ: 2236-2588 || العدد 17 /جوان 2019 || ص 49 - 65

تحوّلات الخطاب الدّيني في ظل ثقافة الصّورة عند عبد الله الغذامي
-مقاربـــــة نقد ثقافيـــــة-

The transformation of the religious speech in the shad of the picture's culture to Al-Ghadami
-A cultural critic approach-

الدكتور/حكيم بوغازي *
أستاذ محاضر قسم -ب-،
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم،
Boughazihakim35@gmail.com

تاريخ الارسال: 2018/02/24 تاريخ القبول: 2019/06/18 تاريخ النشر: 2019/07/04

ملخص:

تتغيا هذه المداخلة بلورة تصور معاصر لمعيار الخطاب الديني الفضائي في صورته المعاصرة، وتحديد النسق المعرفي والذهني الذي يسيّر ثقافة الصورة الدينية، فضلا عن المقام الثقافي والتبئير المأسس الذي ترسمه السلطة (بمفهوم عام) في محاولة القبض على مجامعه التواصلية، وهذا من خلال الطرح المتضمَن في الكتاب محل الدراسة والموسوم: الفقيه الفضائي، تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة، لصاحبه الغذامي الناقد السعودي.

ولعل ما يعزّز التقديم الذي أسردناه سلفا، تصريحه في غير ما موضع، بأنّ الخطاب الديني تحوّل في ظل فهم ثقافة الصورة من حال إلى حال، وبما أن هذا الخطاب يحمل الوصف الثقافي المصاحب للوجه الإعلامي التواصلي الموجه للجمهور خاصِّه أو عامّه، فإنه لا بد أن يصاحبه تأثير مباشر وغير مباشر، يساهم إلى حد ما في تشكيل البناء الاجتماعي والثقافي العام، وكذا التأثير الذهني الموازي لنمط السلوك.

وبما أن مفهوم الخطاب الدّيني قد يتخذ شكلا علائقيا مع مستويات أخرى قريبة منه، كالسلطة والسياسة والتواصلية الاجتماعية وغيرها، فإننا في هذه الورقة البحثية نحاول رصد وتحليل الأطر المفاهيمية الآتية:

1. تحليل مقاطع البحث (الخطاب، الفقيه الفضائي، سلطة الخطاب)؛
2. محورية الفقيه الفضائي ونسقه الثقافي عند الغذامي؛
3. فقه الصورة (الشاشة) وأزمة التواصل في الخطاب الديني المعاصر.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني، الفقيه الفضائي، فقه التواصل، سلطة الخطاب، النسق الثقافي.

* **الدكتور/ حكيم بوغازي**، *Boughazihakim35@gmail.com*

المنارة للاستشارات

Abstract

This study seeks to clarify a contemporary perception of the broadcasted religious discourse in its contemporary form, and determining the cognitive system which directs it, as well as the cultural status and the focalisation drawn, to explain its communicative meanings through this research, introducing "Al-Faqih Al-Fadai's" book under study, which belongs to "Al-Ghadami", the saudi critic .

The shift of the religious discourse from its original place (mosques) to broadcast, since the religious speech's notion could take many connections ways with many close levels, such as authority, politics,social relationship and many others. So, in this research we'll try to observe and analyse all the crucial frames concepts .

Key words: Religious discourse. Al-Faqih Al-Fadai. Authority status. Communication.

مهاد البحث:

يقدم عبد الله الغذامي[1] في كتابه (اللبرالية الجديدة، أسئلة في الحرية والتفاوضية الثقافية) صورة عن مضمون خطاب الشاشة المسيطر على أقطاب الوعي الاجتماعي، حيث يقول:(... ولكن العالم اليوم صار أيضا على: كف الشاشة، وهذه نتيجة ثقافية تساعدنا على معرفة الواقعة البشرية(الثقافية تحديدا) بصورة أوضح وأيسر من ذي قبل، والشاشات الثلاث(النت، الجوال ، الفضائيات)...صارت تكشف لك الكون كله...)[(2)]، وهذا الكشف مرده إلى طبيعة الخطاب الموجه وطبيعة النصوص وحمولتها الفكرية الموجودة ضمنها، فضلا عن النسق الثقافي الذي طرحت فيه الأفكار.

كما أنه قدم دراسة شافية وافية عن الصورة الفضائية المنقولة، وصيغها التأويلية في كتابه "الثقافة التلفزيونية" حين يقول: (تلعب الصورة دور المحفز التأويلي، فالصورة تفتح أفقا ذهنيا تتوارد من خلاله التصورات والأيديولوجيا لتعبر عن نفسها بصورة مختلفة، وهي مقياس ثقافي على حدية التأويل أو تسامحه)،[(3)] فمقام تساوي وتداخل المعطى الإيديولوجي مع الهرمينوطيقي يصعب من مهمة التحليل والاستقصاء، وهو ما وقفنا عليه منذ زمن التدوين إلى اليوم.

وعليه فإن الحديث عن الخطاب الديني المعاصر يضعنا في وضع لا نحسد عليه؛ من جهة كون المقدس غير شبيه بالمدنس؛ خصوصية المتعالي والهامش، المركزية والانفلات؛ خاصة أمام الموروث الفقهي والأصولي والنحوي والدلالي المكثف، كثافة الوفاء باللفظ

المنارة للاستشارات

والقصد بالمعنى، ومن جهة ثانية غلبة المناهج القرائية المعاصرة التي أخذت من كل جانب منه بطرف.

وعلى هذا الأساس فلا يجوز-بالمفهوم اللغوي – الانعتاق عن الماضي ونسيانه، بل من الأحسن بلوغ النتائج انطلاقا من تحليل هذا الماضي وإبراز جوانبه الفعالة والمعتمة، والدعوة إلى تشييد الخطاب المعاصر من منظور الأساس العملي لفعل الاجتهاد داخل الخطاب الديني، خاصة في جو النسق الثقافي الذي يسود العالم ونُظمه الأيديولوجية. و من هنا جاز لنا التساؤل حول ماهية الخطاب والنص؛ تواصل أم انفصال؟ كيف يتحول الخطاب إلى سلاح ذو حدين خاصة إذا ما تعلق الأمر بالخطاب الديني؟ ثم ما هي السلطة التي يمتلكها هذا الخطاب الديني الفضائي؟

1) مفهوم الخطاب والنص/تجاوز أم اشتمال؟

لقد تعددت الرؤى والمفاهيم والاتجاهات، حول مفهوم الخطاب منذ الإرهاصات الأولى لعلم اللسانيات عند سوسير، إذ يرى "إميل بنفنيست" بأن الخطاب يتخذ شكلين: شكل الملفوظ *Noncé* وشكل التلفظ أو التحدث *Enonciation*، ومنه يكون الملفوظ على النحو التالي: (مجموع الوقائع الكلامية أو اللغوية التي يقوم بها المتكلم، وهو تمثيل جزئي للتلفظ يؤديه المتلفظ مؤكدا أو آمرا أو مفترضا)، [4] وعليه يكون الخطاب إما: تأكيد لحقيقة أو أمرا بفعل أو افتراضا لمسائل.

ويلتقي "هاريس" مع "بنفنيست" في الشطر الأول من التعريف فقط، إلا أنه يظل تحت وطأة اللسانيات البنيوية التوزيعية المعتمدة على الجملة في التحليل، وبالتالي نجد تعريفه لا يخرج عن المذهب قائلا (مجموعة من الجمل لها معنى)، [5] وقد يذهب هذا الإطلاق إلى دلالات النص عند الغربيين.

أما المفهوم الذي قد نجده معتبرا و لائقا بما نحن بصدده، هو ما تناوله "مايكل شورت" في كتاباته، حينما قال: (الخطاب اتصال لغوي، يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع، نشاطا متبادلا بينهما، وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي)،[6] أين تتبادل الأدوار ما بين المخاطِب، الخطاب، المخاطَب، ومادامت المنفعة قائمة بصيغ التداول المتاحة، يكون ميكانيزم الخطاب ذو فعالية، و ينتج عنه في الغالب سلوك معتبر خاضع لمؤشر من مؤشرات القياس كما ونوعا.

المنارة للاستشارات

وفي خطابنا العربي المعاصر، نلفي الجابري يتحدث عن مفهوم الخطاب باعتباره مقول الكاتب فيقول: (الخطاب...هو بناء من الأفكار...يحمل وجهة نظر، أو هو هذه الوجهة من النظر مصوغة في بناء استدلالي، أي بشكل مقدمات ونتائج...)[7]، كما أنه يشير إلى طبيعة بناء قواعد هذا الخطاب الذي يتعلق بالوظيفة والأداء بعد البناء، فيقول: (فإن الخطاب يعكس مدى قدرة صاحبه على احترام تلك القواعد، أي على مدى استثماره لها لتقديم وجهة نظره إلى القارئ بالصورة التي تجعلها تؤدي مهمتها لدى هذا الأخير، مهمة الإخبار والإقناع...إلخ)[8]

أما المعنى الاصطلاحي للنّص فقد تداخلته جملة من الروافد المعرفية في تعريفه، وقد لا نذهب إلى إحصاء هذه التعاريف، وإنما نكتفي بما يخدمنا في هذه العتبة التي تحاول فهم العلاقة الرابطة بين النص والخطاب، حتى نستبين وجه الفعل المعرفي الصادر عن كلا الجانبين.

يرى "بول ريكور" بأن النص:(خطاب تم تثبيته بواسطة الكتاب)،[9] في حين يرى "رولان بارط" بأن النص يحكمه الفعل اللّغوي النابع من الجذر "نسيج" فهو (أي النص) (يتكون ويصنع من خلال تشابك مستمر... نظرية النص بكونها علم نسيج العنكبوت..)،[10] وهذا المعطى النسيجي قد ورث عن الثقافة الغربية والعربية هذه الأخيرة التي عرفته بمعاني عدة، منها النص نسيج، النص جسد، النص ماء، النص رونق وغيرها من مداليل السبك والوشي والديباج التي عرفها الموروث النقدي العربي على مدار زمن معين.

وبالنظر إلى التأليف المقطعي لمجموعة من العناصر اللغوية، داخل توليفة جملية معينة لها دلالة يرتبط فيها التالي بالأول، يذهب اللغوي (أدام) إلى تفسير النص وفق هذه الظاهرة التي يغلب عليها التجريد ويحكمها النسق، يقول:(النص كل يشتمل على عدد من العناصر التي ترتبط فيما بينها بعلاقة تبعية متبادلة، وتأتي هذه العناصر أو مجموعة العناصر متتابعة في نظام منسجم وحصيف، تسهم كل قطعة نصية فيه في توضيح القطعة التي تليها، وتسهم هذه الأخيرة بدورها في توضيح سابقتها)،[11] وهو ما يوازي طبيعة التماسك والانسجام داخل النص المبني على التساند .

وإذا كانت هذه مجمل تعاريف (الخطاب والنص) فإن السبيل إلى تفحص الدلالة الجامعة ما بين المنحيين، (الخطابي والنصي) يتجه نحو سبر جملة من المفاهيم التعالقية الرابطة ما بين العلمين، وعليه فإننا نجد من اللسانيين من فرق ومنهم من جمع، فأما الذين

المنارة للاستشارات

فرقوا فقد جعلوا من النص جوهرا ومن الخطاب عرضا و أما الذين جمعوا فقد جعلوا المستوى الفزيائي الصوتي هو الفيصل ما بين العلمين، وإلى ذلك يشير "جان مشال أدام" إلى أن الخطاب (الممارسة الفعلية الاجتماعية للنص)[12]، في محيطها الإنشائي الخارجي ورصد علامات توفيقه لدى السامع.

إن العناية بدراسة النص وسياقه، ومدى الاقتران بينهما، جعلت "رقية حسن" و"هاليداي" يجنحان إلى التوفيق بدلا من التفكيك، فليس النص سوى مقطوعة جملية متوالية، ولا هو (وحدة لغوية تتجاوز مستوى الجملة، وإنما هو وحدة لغوية في الاستعمال، وهو ما يقتضي أن نأخذ بعين الاعتبار ارتباط الخطاب بسياقه (مقام التلفظ، مرجعية الخطاب...).[13]

2) الفقيه الفضائي وسلطة الخطاب الديني:

يشكل الخطاب الديني بمفهومه الواسع، إشكالية كبيرة وخطيرة إن لم تقدم بشكل لائق، على مستوى الطرح والمنهج، فهي رسالة ملغمة حيثما زرعت تركت بصمات لا تندمل ولو مر زمن طويل، ولأجل ذلك يحتفظ لنا التاريخ الإسلامي بوقائع لا تنسى مهما حدث، لذا فثقافة الماضي(ليست ذاكرة وحسب، بل هي أيضا حياتنا المدفونة، ودراستها تقودنا إلى مشهد من مشاهد التعرف إلى اكتشاف ترى فيه لا ماضينا، بل الشكل الثقافي الكلي لحياتنا)،[14] هذا الشكل الثقافي أصبح نسقا مهيمنا ليس فقط على صورية الوضع الاجتماعي، بل تطرف إلى المنحى الفكري بوجه توسعي استعماري، حيث لا اجتهاد مع وجود النص.

وإذا كان الاهتمام بالحضور التراثي (فينا وفي خطاباتنا، فإن الانشغال به والعودة إليه يمثلا في النهاية جزءا من الانشغال بمشروعنا وتأصيلا للهوية الثقافية)،[15] ولكن يبقى السؤال مطروحا ومشدودة إليه جملة الإشكالات المتناسلة، في طبقات لا نجد لها جوابا ما لم تتم إضاءة العتمة التي تُعَنْكِبُ الكثير من زوايا هذه الثقافة الدينية، ذات الخطابات المتعددة المشارب والمذاهب. كما إن الحديث عن أمر جلل كهذا يجعلنا ندخل طواعية في نقد الخطاب الديني المعاصر، الذي أصبح ينشده كل من يقرأ رسالة أو يتصفح موقعا، فلا مريد من دون شيخ، ولكن وجد المريد وغاب الشيخ، ترى كيف قرأ الأستاذ الغذامي أوجه مقاس الخطابي الديني في صورته المصورة والمنمذجة على مقياس النت والجوال؟

المنارة للاستشارات

يعطي كتاب" الفقيه الفضائي" صورة حقيقية عن المدار الحلزوني الذي ينشغل به الفقهاء اليوم، قاصدا بذلك الفتوى الدينية من المحيط إلى الخليج، وإذ كان الكاتب يحاول علاج ظاهرة دينية، وطفرة في ميزان الخطاب الديني المعاصر، الذي انتقل من المنابر إلى الانعتاق والتجوال وراء الفضاء الأزرق من دون هوية وتأشيرة تذكر، فإنه حاول القبض على مكمن الداء ووصف الدواء.

يجنح الغذامي في تحديده لمصطلح الفقيه الفضائي إلى نوع من المقابلة فيقول:(إن مصطلح الفقيه الفضائي يأتي في مقابل الفقيه الأرضي، ونقصد بالفقيه الأرضي كل ما كنا نعهده عن الفقيه الذي وظيفته الجوهرية التصدي لحاجات الناس الفقهية والدينية، بكل ما يتعلق بها من إجابات عن أسئلتهم وتعليم ديني وخطابة وتأليف مما هو من مقومات الخطاب الديني، بصيغته العملية والتداولية بين عالم دين وجمهور يتلقى أمر دينه عنه...)،[16] ومن هنا أوجب لهذا الفقيه الأرضي صفات مثلى كان لا يحيد عنها من ذلك :

1- خطابه الديني خطاب محلي؛
2- العلاقة بين الفقيه والمتلقي مباشرة عملية؛
3- فن التواصل الديني مرتبط بوحدة عضوية (السياق، المقام، البيئة، الرسالة)؛
4- مجال اللغة المتداولة ذات بعد إفهامي إدراكي مداليله مشتركة.

وتأسيسا على ما ذكر، فإن جدلية الفهم والتفسير التي يقتضيها مقام الخطاب الفقهي الأرضي، تنطوي على معرفة يقينية بحدوث النتائج المرجوة من الخطاب، فحيثما وجد السائل وجد المسؤول، وقد يكون بقربه يصحح ويقوم ويرشد ويدلل ويبني ويكون، إلى غيرها من الدلالات التي تحتل حيزا مهما في هذا النوع من الخطاب، ومن هنا يكون الفهم المصاحب لهذا الخطاب الأرضي يعبر عن معنى (الإمساك بسلسلة الدلالات الجزئية في فعل تركيبي ككل واحد... ويكون الفهم القبلي يتميز بالبساطة والسذاجة لأنه إمساك ساذج بمفهوم النص ككل...).[17]

أما ما يتصف به الخطاب الديني الفضائي، فإنه يخاطب جملة من العقليات والسلوكيات والطبقات، وقد يكون هذا التنوع الذي يمارس عليه هذا الخطاب متفرق تفرق البشر بين أنحاء العالم، فالمشكلة تكون أكبر حينما يكون الخطر أعم، ومن هنا ألحق "الغذامي" الفقيه الفضائي بثلاث خصائص ارتبطت في مجملها بالمتلقي:[18]

المنارة للاستشارات

1- **الجمهور المحلي:** ونقصد به كل مسلم ومسلمة ممن يعيشون في بيئات إسلامية عربية، وستكون مصر والسعودية مثلا في بيئة واحدة لأي فقيه سني عربي ومثلها سائر الدول العربية؛

2- **الجمهور المهاجر:** وهو جمهرة المسلمين والمسلمات ممن انتقلوا عن ديارهم واستوطنوا في المهاجر غير المسلمة كأوروبا وأمريكا، وهذا جمهور طبعا له ظروفه تختلف عن الجمهور المحلي في كل شيء؛

3- **الآخر:** وهو جمهور غير مسلم تتيح الفضائيات وصول الخطاب إليه، وهو جمهور متنوع الاهتمام وبعضه يمارس نوعا من الرقابة السياسية والثقافية على الخطاب الإسلامي، ويقرأ الثقافة الإسلامية عبر ما يسمعه من فقهاء المحطات الفضائية، ويحكم على الأمة وتاريخها مما يلتقطه من قول مبثوث على الفضاء.

وهكذا فإن الفقيه الفضائي صاحب المرجعية الدينية المؤسّسة، تتنازعه الكثير من الجماهير التي تتلقف كلما يصدر عنه، لذا أردنا بيان تفاصيل خطابه المسهم بطريقة أو أخرى في صنع المحصلة الدينية لهذه الجماهير، ومدى جنوحها إلى التأسيس الفعلي لنتائج هذا الخطاب المبني على متصورات معينة، إذ (لا نستطيع أن نتواصل مع المتصورات دون مدارسة الخطاب،... ودون الغفلة عن كون الذات جزء قار في الموضوع)،[19] فهذا المتصورات هي ما صدق كليات الخطاب الديني.

إن المرجعية الدينية لأية أمة من الأمم هي الأساس المنهجي الذي يحدد أعمار هذه الأمم ومراسيم أفولها أو عظمتها، ولذا (يحتل الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعية خطيرة من التأثير لا يضاهيه فيها أي خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي، ويوجه السلوك العام، نظرا لارتباط مجتمعاتنا بالدين، ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه)،[20] وبالتالي فهو يشكل سلطة روحية وسلطة مادية تتحكمان في معتنقيه إلى حين.

ومن هنا يأتي الحديث عن المعيار النموذجي الذي فتّق التغيير العام والخاص (بالوسائل، والذي تبعه تغير في حالة المستقبلين، ولا بد أن يتبعه تغير في حالة المرسل وكيف يتعامل الفقيه الفضائي مع هذه المتغيرات)،[21] التي تحاول التأثير على سلطة النتاج الفقهي، ليس فقط ما اختص بفقه النوازل أو الأقليات، وما السبيل نحو النموذج الاجتهادي الرافع للحرج والمحدد للمسائل الأصولية الدينية.

المنارة للاستشارات

والحالة هذه، فإن مسألة الفتوى دون تحديد الملابسات وأسباب الورود، وتمحيص بالمذاهب والترجيح بحسب الدليل، قد يكسر أفق السلطة الدينية المستقبلة (فالأخطر بكل تأكيد هو أن يظل الفقيه أرضيا ومحليا ويعطي للسائلة المهاجرة جوابا (مثلا) لا يراعي ظروفها وقد يكون جوابا غير قابل للتمثل في بيئتها... وقد يقع في كلمات تسيء للجمهور غير المسلم ممن يصل إليه القول فينعكس ذلك ضررا على الإسلام وأهله)،[22] وهنا يجب مراعاة الأحوط والتيسير وليس البحث عن درء المفاسد أولى من جلب المصالح.

وعلى هذا الأساس يقول "الغذامي": (جاءت الفتوى الفضائية لتكون ثقافة عصرية وعملية وتواصلية، وجاء الفقيه الفضائي ليكون مثقفا شرعيا يعاصر زمنه ويعيش في ظروف الناس ... إنما يخاطب الإنسان بوصفه كائنا ثقافيا يعي ويتواصل ... إنما هو خطاب مفتوح على كل البشر...)،[23] فهذه الانفتاحية لها من الضوابط ما يجعلها تقدم الرسالة الدينية على أكمل وجه، فليس المعيار هو المشي على السنن الخالص الذي كانت عليه الأمة سلفا، وإنما حصر أوجه الجديد في صنف الاجتهاد داخل وخارج النص.

إن هذه العملية ليس بالأمر السهل، خاصة في نظام عالمي جديد يسير بفقه السيطرة العلمية التكنولوجية ومقام الاستعمار البائد ليس له محل إلاّ في الأذهان، فالمعرفة الحديثة تسعى إلى تعزيز ثقافة المعلومة وكيفية توظيف هذه المعلومة، خصوصا والعالم يسير نحو التفتت، والإمبريالية تسعى نحو التوسع واستغلال الآخر في نماء الأنا، الأمر الذي يصعب من مهمة الخطاب الديني في توجيه الفكر وتوحيد الصف، بدلا من البحث عن الفرق بين الخيط الأسود من الخيط الأبيض زمن الاصفرار.

تأتي سلطة الخطاب الديني إذن كثقافة مهيمنة على العالم الإسلامي، كما هي ثقافة مهيمنة على المتدين الآخر من الضفة الأخرى أيا كان انتماؤه العرقي، ومن هنا نشأت الدعوة إلى الحوار الديني العالمي، وهي فكرة تكرس مبدأ السيادة للقوي طبيعيا، وقد لا نعير هذه المسألة اهتماما حين نستشعر الخطر من داخل الملة نفسها، وما الانقسام و التشظي والتشرذم الذي تعيشه الأمة الإسلامية، لدليلا على خطاب السلطة في تأجيج الهذيان الديني والفتوى التي تعقد المسائل بدلا من حلها، إذ لم يعد للفقيه من درجة استحقاق سوى الانكفاء على الذات والبحث عن المرشد، ومن هنا نصرح بأن (الخطاب الديني أصبح مرآة لصورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتقويمات عن أمتنا ودينا وثقافتنا)[24]، وهو ما سنحاول التحقق من تطبيقاته ومفاهيميه في النقطة

المنارة للاستشارات

الموالية من هذه الورقة البحثية عند "الغذامي"، حين نعرج على محورية الفقيه والفتوى، وجدل النسق الثقافي الذي استلزم هذا النوع من التوجه الديني في زمن الصورة والتكنولوجيا المعاصرة.

3) محورية الفقيه الفضائي ونسقه الثقافي عند الغذامي:

يعتمد النسق الثقافي المحرك لفعل الهيمنة، على مدركات البيئة الاجتماعية (السياسية والدينية)، حيث يغدوا التفسير محسوبا على دراسة الظاهرة وليس الفعل، من منطلق التركيز على أنظمة الخطاب و(أنظمة الإفصاح النصوصي)،[25] وعليه فإن الممارسة الفعلية لتحليل الُبنى الظاهراتية للخطاب الديني ستكشف لا محالة عن تبئير لأنظمة عقلية ولا عقلية، تحتاج إلى صناعة شكل مقولب لها يتمثلها ويحيي أنماطها.

كما أنه لا بد من تعرية نسق الخطاب الديني المعاصر عن فعل الهيمنة الصورية لأنظمة الحكم، (فالتيار الإسلامي السياسي له حضوره وحيثياته في المجتمع العربي، وخطابه السياسي يستند في كثير من الأحيان إلى مرجعية دينية غير مستقلة عن العائلات الحاكمة، وجاهزة لتثبيتها ومنحها الشرعية. إلا أن خطابه السياسي لا يخلو من البعد الديني وهو ما يعقد الأمور في تفكيك خطاب هذا التيار... فالمشكلة في مرجعية الخطاب والتوافق عليه..).[26]

ومن هنا يمكننا القول بأن محورية الفقيه الفضائي، تتحرك ضمن أفق عملي فقهي تصاعدي، واجتماعي نفسي ديني، وبهذا الوصف (يأتي الفقيه الفضائي بوصفه صيغة ثقافية تطرح نوعا مختلفا لعالم الدين، وكما أن هناك علماء دين تفرزهم المؤسسة ويسمون عادة بكبار العلماء، وهم الفقهاء الرسميون الذي يقودون الخطاب الديني ويحددونه... فقد جاء عصر الفضائيات وظهر الفقيه الفضائي الذي لم تعينه المؤسسة ولكنه اكتسب موقعه عبر قبول الجماهير له...)، [27] وهنا لا بد من مناقشة هذا الطرح والإبانة عن أمر جد مهم يكون قد أغفله الدكتور.

يتعلق هذا الأمر بالنسق المأسس الذي زكّى هذا النوع من المشايخ على الفضائيات، بل قد تجد مفارقة حين تكون للفقيه الفضائي سلطة القرار وسلطة البت في أمور تستحق شهور ودهورا للفصل فيها، وقد يكون الأمر أكبر من هذا حين يغدوا الصراع على أوجّه بين الأرضي والفضائي، ويمتد الخلاف إلى أصل الخلاف بينما يبقى المستفتي والمتلقي حائرا بين

المنارة للاستشارات

حجة وحجة، فتوى وفتوى، إلى أن تتصيده المكائد وينظر إلى اختلافه على أنه نقمة لا رحمة، وهنا يكمن الخطر الداهم على الإسلام بصيغة الجمع.

وبالعودة إلى كتاب "الفقيه الفضائي"، نلحظ أن ذلك الشطط والمأزق الفكري الذي لا ينفصل عن الذات، ولا ينفك عن النص، بل هو الاتصال المطلق ما بين الكيف والكم؛ العرض والجوهر، فإذا أمكننا بلوغ هذه الغاية (الالتحام بين النص والمستمع) فقد توصلنا إلى الصيغة المثلى للثقافة الدينية التي تمكننا من (قياس كل الأشياء، بما إن كل حقيقة واقعية يتم إدراكها عبر نظام ثقافي معين)،[28] قد يكون نسقا متصلا وقد يكون منفصلا.

ثم إن المحورية والمركزية الذاتية التي يدور في فلكها الفقيه الفضائي ومن ورائه الخطاب الدائر وراء الشاشات، يحكمه النسق العام السائد، وهنا تتدخل عوامل عدة في صنع الفتوى وإصدارها، فالعامي يشرئب دوما نحو الكمال الديني- إن جاز التعبير- والمثقف يتبنى وينتقد والتكنولوجيا تصدر، والتنفيذ معلق ما بين السلطة التقديرية ومقدار الفهم والاقتناع بالحجة والتدليل، وعلى هذا التقدير فإن هذا العصر التكنولوجي(يحمل نشوته الخاصة في هذه العلاقة الجديدة بين الإنسان والآلة،...مما يعني أننا لسنا في عصر تكنولوجي جديد فحسب، ولكن في عصر ثقافي جديد ونحتاج معه إلى كشف الخطاب المعبر عن حال هذه المرحلة وشرطها الإنساني /التكنولوجي المزدوج)[29].

إن (الوظيفة النسقية للغة)[30]الدينية، المتعلقة بالاستعمال الموضعي أمام جمهور معين وفق أداء خطابي معين، قد خصها "الغذامي" بالحديث المطول في فصل (حجب الفتوى)، وهذا الإسهاب له مكانته العلمية في هذا الكتاب، ففيه بيان عن سلطوية القرار السياسي في صياغة الفتاوى ضمن مرجعية معينة، فحتى وإن استندت إلى الدليل الصريح من المعقول والمنقول، إلا أن حجب الفتوى والتحكم في ميزان الفقيه الفضائي له عدة صور يتمظهر من خلالها، من ذلك:

- (ممارسة الضغط المعنوي والفئوي على أية فقيه يخرج بغير ما هو مترسخ في قناعات المؤسسة)، [31] وقد مثل الدكتور لذلك بما حدث للشيخين (عائض القرني) و(عادل الكلباني) في مسألتي [الحجاب والاستماع للأغاني]، حيث أثارت فتواها الكثير من التساؤلات حتى علم أن هذا الأمر من المعلوم من الدين بالضرورة، ولولا الحكمة والتعقل لحدث ما حدث؛

المنارة للاستشارات

- (الاستعانة بالسلطة لفرض رأي المؤسسة الفقهية)،[32] وقد مثل الدكتور لذلك بما حدث في السعودية حول منع قيادة المرأة السيارة، وحول منع النساء من بيع الملابس الخاصة بهن، (ثم تضاعف الأمر مع ظهور فتاوى فضائية وعلى النت كثر فيها الخروج عن المألوف الفقهي،... وحصل تآزر بين الليبرالية والمؤسسة الفقهية الرسمية من أجل وقف هذا التيار الفكري الجديد وجرأته في استثمار فسحة الحرية التي تتيحها الشاشة فضائيا وعلى جهاز الحاسوب ...)،[33] وصار الحديث عن تقنين الفتوى من باب سد الذرائع تفاديا للانشقاق؛
- أما في العنصر الثالث من هذا التوصيف فقد رصده الأستاذ للحديث عن (إخفاء الآراء مع العلم بها)،[34] قصد العمل على تحجير الفكر والسعي نحو تكميم الذات القارئة، وهذا رغم وجود ما يرفع الحرج، وقد مثل لذلك بما يحصل في الحج، في أداء رمي الجمرات، وهي مشكلة عويصة قد أتت على الآلاف هذا العام، مثل ما حدث سنة 1990، ومفادها جواز رمي الجمرات قبل الزوال وعلى مراحل ، والأكيد أنه في بطون الكتب ما يفيد الاستغناء عن رميها والفداء على ذلك بذبح.

لا يفتأ الأستاذ الغذامي يذكر جناية النسق على الفتوى ومن ورائها الخطاب الديني، ولا يجد حرجا في الانتصار إلى الخطاب الديني الذي ينبني على رأب الصدع، والسعي الحثيث وراء جلب المصلحة والتوسعة بعيدا عن التضييق، كما أننا نلفيه يتحدث عن النماذج الفاعلة في الوسط الفقهي ومجال الفتوى بنقد مؤسّس، ساعيا إلى تكسير عنصر الحجر وفعل تبيئ الفتوى، منتصرا إلى الإفصاح عن مكنون التراث الفقهي الإسلامي المبني على الاجتهاد، خاصة في حديثه عن الإمام الشاطبي.

وإلى ذلك يقول الغذامي: (ليست الفتوى بمعزل عن هذه النسقية، فالفتوى ثقافة بشرية يديرها بشر لهم آراء ويشعرون بقدسية عملهم، لأنهم يتعاملون مع خطاب مقدس، وله حصانة شرعية عليا...)،[35] ومع ذلك يتساءل الغذامي، هل الفتوى رأي الدين أم (رأي) في الدين؟ وهنا يختلط الحابل بالنابل، ويمتد الخلاف إلى أبعد من ذلك حينما يشهر كل مفتي سيف الدليل وتتباين الرؤى ويخلق جو جديد من عدم الاستقرار في الخطاب الديني، ويظهر للعالم أنه فقط عند المسلمين اختلافات حتى في الأصغر حجما.

المنارة للاستشارات

4) فقه الصورة (الشاشة) وأزمة التواصل في الخطاب الديني المعاصر.

يعكس خطاب الصورة رؤية معرفية معينة، نستعين بها في إحصاء الأطر الاجتماعية المحددة لأنظمة الخطاب، وبالتالي تحليل عناصر الرسالة المراد إيصالها للناس، ومن هنا فإن هذه العملية الدقيقة تساهم في إنجاحها أو فشلها جملة من العوامل المرئية وغير المرئية، والتي بدورها تكوّن الحلقة الأساس في هذا العمل.

إن السبيل الأنجع للوصل إلى الغاية المنشودة من وراء الخطاب الديني المتجول عبر القنوات، لا بد أن يكون ضمن محورين؛ عمودي وأفقي يخص المخاطَبين، وعلى المخاطِبين (تنظيم رسائلهم وفقا لما يعتقدون أن مستمعيهم يعلمونه أو لا يعلمونه، ويتوجب عليهم أيضا ترتيب كل شيء بطريقة مترابطة)،[36] على أساس أن فن التماسك والانسجام بين أركان الخطاب، تساهم بطريقة أكبر في فعل التحسين أو التقبيح.

يذهب الدكتور "الغذامي" إلى الحديث عن الأوجه التعبيرية الخاصة بفن الخطاب الديني، كما أنه من حين لآخر يخوض في التمثيل الواقعي لنظم الخطابات المعاصرة، كوجه لإبراز الدلالة الملموسة للتفاعلية الشاشاتية بين ملقي ومتلقي، وأمام هذا التفاعل يوجد لا تفاعل، يحكمه نسق معين، قد يكون رأي أو فلسفة دين أو مذهب، ولكن العبرة بوجود من يردد هذا القول الفقهي أو ذاك من دون أي وجه حق، قد تجعل من الأمر يخرج عن السيطرة من حين إلى حين، لذلك نجده يتساءل، (هل أزمة الثقافة العربية والإسلامية هي أزمة تطرف وغلو...؟ أم هي أزمة وسط...؟)،[37] وبعدها يشرع في التحليل والتعليل والترجيح.

يطبع الحديث عن مسألة الوسطية والتغريب والتهويد وغيرها من سمات التدين، عند "الغذامي" طابع البحث عن البنية العميقة للمصطلحات، ثم يناقش مسألة الوسطية والتيسير في الخطاب الديني الإسلامي من منظور علاقتها بأشكال التواصل، حيث يقول:(ولقد كان لهذه الدعوى مفعول سلبي خطير في إعاقة أي تطور نوعي في الفقه المعاصر)[38] أما عن الأسباب التي كانت وراء ذلك فيذكر: (وذلك بسبب القوة التشويهية التي تحملها كلمة التغريب والعصرنة مما يقيم حاجزا معنويا شائكا بين الفقه العصري و الجمهور، ويشوه الاستقبال، ويقطع التواصل، لأن المعنى السيكولوجي لمصطلح التغريب يضرب في أعماق النسق الثقافي العربي)،[39] لما يحمله من سمات الاستعمار والاستغراب والتهجين وغيرها من المسميات.

المنارة للاستشارات

يمتح الخطاب الديني الإسلامي كل مقوماته المعرفية من الخطاب القرآني والحديث النبوي الشريف، ويتأسس الاجتهـاد كفعل للفهم والإدراك والتفسير والتأويل، ومن هنا فإن (القرآن يشكل خطابا يمسح جغرافية الفهم لأنه يجعل القارئ "يحتاج أن يفهم" وينشأ الفهم المستمر بشقيه: فهم النص وفهم الذات أمام هذا النص وهو ما يؤول إلى حلقة بين الذات والنص...)،[40] فالنص له حدود التأويل والفهم، والذات تستبحث هذا وذاك، فإن كان التأويل فهو تفكيك البنية العميقة واستنباط الحكم من دلالات متنوعة، وإن كان الفهم فهو تفتيق الخطاب اليسير وجعل الجمهور يتبع ما أمكنه من تقليد لمذهب واتباع لأمام، فمن قلّد عالما لقي الله سالما.

خاتمة البحث:

ومن القول النافـل في هذا المقـام، نستطيـع أن نجمـل حديثنـا وتوصياتنـا في النقـاط الآتيـة:

1- عبد الله الغذامي ناقد من مؤسسي النقد الثقافي الجديد الذي ينبني معماره على نقد المؤسسة المنتجة للخطاب؛

2- حاول عبد الله الغذامي إحداث مفارقة في كتابه الفقيه الفضائي، كما انتقد تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشات الأمر الذي جعل الجمهور المتدين (الإسلامي وغير الإسلامي) ينظر إلى محلات اختلاف الفتوى؛

3- من الملاحظ أنّ الأدلجة الدينية الحديثة تسعى إلى إعادة بلورة خطاب متلفز(جوال) قد يهدم أجندة الموروث الفقهي المدون والمكتسب، ويعيد لنا إنتاج خطاب ديني مفتوح على تمثلات اجتهادية شبيهة بفقه النوازل؛

4- إن مضمون خطاب الشاشة المسيطر على أقطاب الوعي الاجتماعي، أصبح فاعلا محوريا في تحريك الرؤى والرؤى المضادة، وتبئير الفعل الديني في خطابات متنوعة قد تجعل الفهم عسيرا خاصة حديثا؛

5- إن مصطلح الفقيه الفضائي عند الغذامي يأتي في مقابل الفقيه الأرضي (المسجدي، الإرشادي، الفتوى...، ونقصد بالفقيه الأرضي كل ما كنا نعهده عن الفقيه الذي وظيفته الجوهرية التصدي لحاجات الناس الفقهية والدينية، بكل ما يتعلق بها من إجابات عن أسئلتهم وتعليم ديني وخطابة وتأليف، مما هو من مقومات الخطاب

المنارة للاستشارات

الديني، بصيغته العملية والتداولية بين عالم دين وجمهور يتلقى أمر دينه عنه. والغالب هنا هو المسلم؛

6- الفقيه الفضائي أصبح يخاطب ثلاثة جماهير: محلية متأصلة، مهاجرة مقيمة، الآخر المتابع؛

7- الفتوى الفضائية ثقافة عصرية وعملية تواصلية، وجاء الفقيه الفضائي ليكون مثقفا شرعيا يعاصر زمانه ويعيش في ظروف الناس، فهو يخاطب الإنسان بوصفه كائنا ثقافيا يعي ويتواصل، وخطابه الديني إنما هو خطاب مفتوح على كل البشر، لذا وجب التحذير والتنبيه، والاشتغال بالمراد قبل البعيد، فالفتوى ينتهض بها من يستطيع التحكم في آلياتها، ويعرف ناسخها من منسوخها وخاصها من عامها؛

8- السلطة المنتجة للخطاب الديني لها دور في ترسيخ هذا العمل، فهي مسؤولة عن توجيه هذا الخطاب ودعمه؛

9- لقد جاء عصر الفضائيات وظهر الفقيه الفضائي الذي لم تعينه المؤسسة ولكنه اكتسب موقعه عبر قبول الجماهير له، وهذا القبول مرده إلى المتلقي الذي يطرحه مجتمع معين، وتختزله أفكار معينة فهو يؤسّس توجهه وفقا لمراده الاجتماعي وميوله السياسي، وهو ما نلاحظه اليوم في أغلب الدول التي تكفل هذا النوع من التوجه السياسي الديني الثقافي.

مراجع ومصادر البحث

1- أسماء جموسي عبد الناظر، المتصور والمصطلح في الإجراء والقراءة، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، ط1/2008.

2- الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1991.

3- جورج يول، التداولية، تر: قصي العتابي، الرباط، دار الأمان، ط1/2010.

4- حسن الصفار، الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1/2005.

5- خديجة غفيري، سلطة اللغة بين فعلي التأليف والتلقي، المغرب، إفريقيا الشرق، 2012.

6- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات العامة، الجزائر، دار هومة،2000.

المنارة للاستشارات

7- رولان بارت، لذة التناص، تر: محمد الرفرافي ومحمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع10/1990.
8- زياد حافظ، الخطاب الديني والتجديد الحضاري، في الأمة العربية، المستقبل العربي، ع402، أغسطس35/2012.
9- سارة ميلز، الخطاب، ترجمة: يوسف بغول، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة 2004.
10- عبد الجليل منقور، النص والتأويل، دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
11- عبد الله الغذامي، الثقافة التلفزيونية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط2/2005.
12- عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1/2011.
13- عبد الله الغذامي، اللبرالية الجديدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1/2013.
14- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط5/2012.
15- عمارة ناصر، اللغة والتأويل، بيروت، دار الفارابي، ط1، 2007.
16- لزهر عقيبي، جدلية الفهم والتفسير في فلسفة بول ريكور، الجزائر، منشورات الاختلاف، بيروت، منشورات ضفاف، ط1/2012.
17- محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، م1/2008.
18- محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العال، الطبيعة والثقافة، الدار البيضاء، دار توبقال، ط3/2005.
19- نورثروب فراي، تشريح النقد: محاولات أربع، تر؛ محمد عصفور، عمان/الأردن، منشورات الجامعة الأردنية، ط1. (دت).
20- يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1989.
21- Adam (Jean-Michel). Linguistique textuelle: Des genres de discoures aux textes, Paris : Nathan.1999. P/08.
22- E.Benveniste, problème de linguistique générale, éditions Galimard, 1966.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

[1]-عبد الله الغذامي ناقد ومفكر سعودي، من مواليد عام1946 في عنيزة أكاديمي وناقد أدبي وثقافي سعودي ,[2]وأستاذ النقد والنظرية في كلية الآداب, قسم اللغة العربية، بجامعة الملك سعود بالرياض. وحاصل على درجة الدكتوراة من جامعة إكستر البريطانية، وهو صاحب مشروع في النقد الثقافي وآخر حول المرأة واللغة. من كتبه: النقد الثقافي، الفقيه الفضائي، القبيلة والقبائلية، اللبرالية الجديدة وغيرها من الكتب الكثيرة.أولى كتبه كان دراسة عن خصائص شعر حمزة شحاتة الألسنية، تحت اسم (الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية). كان عضوا ثابتا في المماحكات الأدبية التي شهدتها الساحة السعودية، ونادي جدة الأدبي تحديدا في فترة الثمانينات بين الحداثيين والتقليديين. ينظر ويكيبديا بتاريخ الأحد 27 ديسمبر /كانون الأول2015 ، الموافق 15 ربيع الأول 1437 هـ

[2] - عبد الله الغذامي، اللبرالية الجديدة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1/2013.ص06.

[3] - عبد الله الغذامي، الثقافة التلفزيونية، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط2/2005، ص152.

[4] -E.Benveniste, problème de linguistique générale, éditions Galimard, 1966, p16.

[5]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات العامة، الجزائر، دار هومة،2000، ص58.

[6] - سارة ميلز، الخطاب، ترجمة : يوسف بغول ، منشورات مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات، جامعة متنوري، قسنطينة 2004 ، ص03.

[7] - الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 10.

[8] - الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، م.نفسه، ص 11.

[9] - يقطين سعيد، انفتاح النص الروائي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1989، ص19.

[10] - رولان بارت، لذة التناص، تر: محمد الرفرافي ومحمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، ع1990/10، ص 35.

[11] -Adam (Jean-Michel). Linguistique textuelle : Des genres de discoures aux textes, Paris : Nathan.1999. P/08.

[12] - Adam (Jean-Michel). Linguistique textuelle : p39.

[13]- محمد الأخضر الصبيحي، مدخل إلى علم النص، ومجالات تطبيقه، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، م2008/1، ص 75.

[14] - نورثروب فراي، تشريح النقد: محاولات أربع، تر؛ محمد عصفور، عمان/الأردن، منشورات الجامعة الأردنية، ط1، ص457.

[15] - الجابري محمد عابد، التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1991، ص46.

المنارة للاستشارات

[16] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، تحول الخطاب الديني من المنبر إلى الشاشة، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2011/1، ص18.

[17] - لزهر عقيبي، جدلية الفهم والتفسير في فلسفة بول ريكور، الجزائر، منشورات الاختلاف، بيروت، منشورات ضفاف، ط2012/1، ص 104.

[18] - ينظر: عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م.س، ص وما بعدها 19.

[19] - أسماء جموسي عبد الناظر، المتصور والمصطلح في الإجراء والقراءة، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، ط2008/1، ص165.

[20] - حسن الصفار، الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط2005/1، ص17.

[21] -عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م. السابق، ص 21.

[22] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م نفسه، ص نفسها.

[23] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م نفسه، ص 22.

[24] - حسن الصفار، الخطاب الإسلامي وحقوق الإنسان، م.السابق، ص 19.

[25] - عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، م.السابق، ص29.

[26] - زياد حافظ، الخطاب الديني والتجديد الحضاري، في الأمة العربية، المستقبل العربي، ع402، أغسطس35/2012، ص 28.

[27] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م.السابق، ص 51.

[28] - محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العال، الطبيعة والثقافة، الدار البيضاء، دار توبقال، ط2005/3، ص11.

[29] - عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، م.السابق، ص 36.

[30] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 63.

[31] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م نفسه، ص 96.

[32] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 98.

[33] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 99.

[34] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 100.

[35] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 103.

[36] - جورج يول، التداولية، تر: قصي العتابي، الرباط، دار الأمان، ط2010/1، ص127.

[37] - عبد الله الغذامي، الفقيه الفضائي، م.السابق، ص 115.

[38] - عبد الله الغذامي، م نفسه، ص 120.

[39] - عبد الله الغذامي، م،نفسه ص 121.

[40] - عمارة ناصر، اللغة والتأويل، بيروت، دار الفارابي، ط1، 2007.ص101.

المنارة للاستشارات